LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ[1]

[نلفت القراء إلى هذا الفصل الذى يذكرهم بأصول البلاغة العربية القديمة حين كان بشر بن المعتمر وأبو هلال وعبد القاهر يدعون إلى أن تدل كل كلمة على معناها الدقيق ، وإلى أن يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام .]

قرأت لشاعر أقصوصة عجيبة ، تخيّل فيها أن بعض الأشخاص القاطنين فى الحواضر من هؤلاء الذين ليسوا أهلاً للوجود ، والذين انعدمت شخصيتهم فهم لا شىء ، ينتهزون فرصة العدد الكبير من السكان الذين تزدحم بهم هذه المدن ، فيندسّون وسط الجمهور ، ويتظاهرون مفلحين بالاستمتاع بحظ من الوجود الواقعى لا يقل عن حظ أولئك الذين يسايرونهم . فهم يتجولون ويشغلون أنفسهم ويسيرون سيرة غيرهم من الأفراد الذين من حولهم حتى إنهم يخدعونهم فى يسر . ولكن القاصّ يذكر أن العين المتدربة تستطيع تبينهم ، وأن فى مطاردتهم عندئذ كثيراً من التفكه . وحين ينكشف أمر هذه الظلال الطامحة ، تسعى إلى الفرار ؛ وهى تجتهد وُسْعَها فى الإفلات من متتبعيها مستعينة على ذلك بكل الوسائل . فتخترق الحوانيت الكبرى ، تدخل من باب وتخرج من آخر بعد أن تكون قد حاولت الاندماج فى غمرة المشترين ، أو

---

(١) صاحب هذا المقال روجيه كايوا من خريجى مدرسة المعلمين العليا بباريس . انضم فى أول حياته الأدبية إلى أصحاب مذهب السوريالزم ، وما لبث أن هجرهم وقطع الصلة بينه وبينهم فأخذ يدافع عن ضرورة خضوع الأثر الأدبى للفكر والنظام ، وعن ضرورة التشدد والزهد فى الأدب ، وهو فى هذا يخاصم أيضاً المذهب الرومانتيكى . وقد عين أثناء الحرب الماضية مديراً للمعهد الفرنسى للآداب فى الأرجنتين ، وبقى طوال الحرب فى هذا البلد حيث أنشأ مجلة « الآداب الفرنسية » التى ذاع صيتها وكان لها أثر كبير فى أدب أمريكا الجنوبية بصفة خاصة . لم يكتب قصصاً أو شعراً ، وآثاره الأدبية كلها تعتبر على الحدود بين الأدب والفلسفة والنقد .

تستقل مركبة تنزل منها أثناء سيرها في وقت لا يمكن أن تتوقع فيه النزول . وهى تدخل منازل ذات منفذين تكون قد استدلت عليها من قبل . ومجمل القول أنها تلجأ إلى كل حيلة قد تكفل الهرب . على أن المهم ألا تغيب عن بصر الذين يقتفون آثارها . فاذا أقبل المساء كانت هذه الأشباح منهوكة القوى وأخذت تقلع عن الجهد . حينئذ تترك الأماكن المكتظة التى يكثر فيها تردد الناس ، والتى كانت ترجو إلى ذلك الوقت أن تضيع فيها ، وتسعى متجهة نحو الضواحى . هناك تؤثر أن تسلك الأزقة المظلمة الخاوية ، وقد كادت تشف أجسامها — إذا جاز لنا أن نستعمل لفظ « أجسام » بالقياس إليها — وأحاط بها شىء يشبه أن يكون إطاراً «مضيئاً» وكأنها تضمحل . لقد أدركت نهايتها . ويعتمد الشخص منها فجأة على حائط فيختفى على الفور ، ولا يبقى على الجدار إلا بقعة عفنة تتخذ من بعيد جدًّا شكلا إنسانيًّا .

١ — الألفاظ والمعانى

ولا إخال الأقصوصة تخلو من المغزى خلواً تامًّا . فإن لم تصدق بالقياس إلى الناس فهى صادقة بالقياس إلى الألفاظ التى تجرى على ألسنتهم . ولطالما استعملوا هذه الألفاظ ، واستعملوا قدراً كبيراً منها ، منذ ذلك اليوم الذى أخذوا فيه يتحدثون ويكتبون ، مدفوعين دائماً إلى استحداث الجديد منها . وهم فى تسرعهم يستخدمون هذا اللفظ أو ذاك دون تمييز بينهما . ولقد نشأ عن ذلك كله ظهور ألفاظ كثيرة لا تغنى شيئاً . وهذه الألفاظ تسير ، شأن غيرها ، وتتألف مثلها من حروف تتجمع فى مقاطع ، وتثبت فى المعاجم ، شأن غيرها أيضاً . على أن وجودها زائف خدّاع ؛ فهى لا تنمو ولا تنجح فى نموها إلا بفضل غفلة عامة ؛ لأنها لا تمثل حقيقة واقعة متميزة عن غيرها ، أو فكرة واضحة محدودة يمكن تعريفها تعريفاً لا يحتمل اللبس ويظفر بموافقة إجماعية . ولكنها مع ذلك تبعث الوهم ما دامت لم تعصر ، وقلما تعصر . لذلك يظل كل إنسان مطمئنا إلى أنها ملأى مثل غيرها ، لا فارغة كما هى فى الواقع . ثم إنه يستحيل إلغاؤها إلغاء تاما ؛ لأن الخدعة لا تحب العزلة . فليست هذه الألفاظ معينة متمايزة يكفى أن تعرف لنحكم عليها ، بل هى خاتلة غدارة لا يمكن أن تأخذها اليد ، تستخفى

وراء مقطع من هذه المقاطع الاضافية التى توضع فى أول الكلمة أو فى علامة من تلك العلامات التى تلحق بآخر الكلمة . ومصدر الكلمة لا يثير خشية ولا ريباً ؛ فهو معروف قد فهم معناه منذ نشأ . وهذا هو الذى ينيم الريبة ، إن كانت قد استيقظت . غير أن كل اشتقاق يخفى شَرَكاً ؛ فهو فى أول الأمر مظهر من مظاهر العمل الفكرى يوسع المعنى ويبسّطه بسطا قد لا يكون ملائما حين يقع ، ولكنه يولد فيما بعد نوعاً من الغش يصعب كشفه . وقد يخرج اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز كما يقال ؛ فتكون الخدعة هذه المرة فى الاستعارة أو فى نسيانها بعد حين لكثرة الاستعمال ، وهذا سريع الحدوث . فبهذه الوسائل وبكثير أخرى غيرها ينشأ منذ أول الأمر بين الألفاظ وبين ما تعنى علامات مريبة غير محدودة . فالألفاظ تتوالد ، كما تتوالد معانيها ، على مدى أوسع حتى يستحيل التمييز بين تلك التى تدل على شىء من الحقيقة الواقعة وتلك التى وجدت كأنما هُرّبت تهريباً . ويزداد الأمر خطراً على مرّ الزمن . وحين تكتسب الألفاظ هذا القدر من الأهمية تتخذ وسيلة للتعرف على الأشياء واختبارها ، تقوم فى ذلك مقام الأشياء نفسها . فهى تفرض نفسها على أذهان ساذجة وتكاد تشغلها إطلاقاً فتخفى عليها الواقع بدلا من أن تيسر لها سبل التعبير عنه . وهى تغمر هذا الواقع وتفسده ، وتخلط كل شىء ، وتجمع تحت عنوان واحد كاذب أشياء منوعة وأفكاراً متباينة لا يربط بينها إلا الإشارة إليها برمز واحد . وهذا الرمز ليس من شأنه إلا التضليل ؛ إذ أنه يخيل وجود روابط وعلاقات بين الأشياء ليست قائمة فى حقيقة الأمر .

والشخص الذى يستعمل لفظاً قلما يفكر فى تحديد معناه . وهو إذ يتحدث أو يكتب يدل به على معنى ثم على آخر ، ولا يقدر أن هذه المعانى لا يمكن الجمع بينها . وكلما زاد اللفظ إبهاماً سهل عليه إدراجه فى حديثه . وحتى إذا جهل مداه جهلا تامًّا فليس ما يمنعه من استعماله حسما يرغب دون أن يتقيد بأى حال ولا يقف أى اعتراض فى سبيل اندفاعه . لذلك كثيراً ما نرى أشخاصاً يلذ لهم أن يجمعوا فى آلاف من الجمل الرنانة ألفاظاً يظنونها تفيض سحراً ، ولكنهم يعجزون عن تحديد ما تنطوى عليه من معنى لو طلب إليهم ذلك . وكأنهم ينظمون ألوانا من الخرز ، فأى رادع يقف فى سبيلهم ! وهم يرصّون ألفاظاً منقادة طيّعة لا تحقق شيئاً ، ولا يجد فيها العقل معنى يثبت له بحيث يستطيع

أن يتعلق به ، كما أنه لايلقى فيها المقاومة إن أراد أن يشتد عليها فى النقد والتحليل فليست إلاّ أصواتا أو مجموعة متلاحقة من الحروف تختلف معانيها باختلاف الحاجة التى تدعو إليها . ولا شك فى أن هذه الطواعية تجعل من اليسير جدًّا على فكر حاذق نشيط أن يجمع بينها فى غير تحرّج ، وهو ينظمها حسبما يحضره من خاطر ، لا يكلف نفسه لحظةً عناء السؤال عن المعنى الذى يؤديه وهذا الإهمال نفسه يصبح مصدر حريته التى تتيح له هذه السهولة والتى قد توهم الذكاء ، وما هى إلاّ تألق زائف وتسلط كاذب يشبه القبض على الريح. وقد يكون هذا الذهن الرخيص باهراً خلاّبا ، فحسبه ألاّ يفكر ؛ لأن كل تفكير يقلل من نزواته وقد يحرم عليه إبداء الرأى ويضطره إلى الاحتياط ، وهو يظهره على مصاعب فى الأشياء والأفكار لم تكن لتظهرها له ألفاظه الجوفاء التى لاتدل على شىء . ولو قد ظهرت له وكان أميناً نزيهاً لنزل من غروره عن شىء كثير ولا بد من شىء من الخُلق المتين ليمتنع الإنسان عن تكلف الذكاء ، وليحاول أن يكون ذكيًّا بالفعل دون أن يتعمد إظهار ذلك إلى حد ما . على هذا النحو وحده أستطيع أن أفسّر ذلك الميل الذائع الذى يدفع بعض الناس إلى استعمال ألفاظ لا يدركون معناها تمام الإدراك . فليس لذلك مصدر إلاّ أنهم فى مثل هذه الحالة أقل تبرماً بالألفاظ مما لو فهموا معانيها . فاذا قيل : مائدة ، أو ألم ، أو خبث ، فَهِم كل امرئ ما تعنى هذه الألفاظ ؛ لأنه خبر هذه الأشياء خبرة كافية ، فليس خداعه عنها سهلاً . ولكن إذا قيل « استدلال » مثلاً أو « سُموّ » فمجال الحرية واسع أمامنا ، ويتعرض كل واحد منا لاختلاط الأمر عليه والاندفاع إلى الخطأ والانخداع . فاذا ذكرت « العدل » أو « الحرية » دون أن تبين ماتريد من ذلك ، فكل شىء يباح لك ، حتى أن تطلق هذين اللفظين على الظلم والطغيان ؛ إذ أن قوام كل أمر متروك إلى تعريفه . ومن ذا الذى لايذكر أن بعض الغزاة استعمل لفظ الحماية يدل به على الإخضاع والإذلال ، وكان التضليل ظاهراً ، فلم يضلل أحداً ! ولكنى لا أخاف هذا التضليل المكشوف ، وإنما أخاف التهور الساذج والمظاهر المختلفة التى تتخذ فى غير شعور . وهذه المظاهر مع الأسف موجودة دائماً فى كل مكان ، فما نكاد ننظر فى أية صحيفة حتى نراها ماثلة فى كل مكان . وواضح أن هنا على الأقل إعراضاً عن طواعية ورضا عن استعمال الألفاظ فى معانيها الحقيقية . أصدر هذا عن سذاجة أم عن دهاء ؟

لعله صدر عن الأمرين جميعاً . إذ الدقة موضع سخر لأنها لا تظفر برجع ، على حين تستغل بعض الألفاظ لما توحى به من غواية وإغراء . وقد تحدث فكتور هوجو عن « خطاف أشهب » . . . كذلك نراهم يتحدثون عن « الحب المستقل للوطن » . . . وليس للعبارة معنى ، ولكن ما الحرج فى ذلك ؟ فالذى يستعمل هذا اللفظ هنا يريد أن يكسبه الدلالة التى يشعر أنها لازمة له فى عبارة « قيمة مستقلة للأشياء »

وهذا النحو هو الذى ينحوه التاجر حين يعلن أن بضاعته « ترف اقتصادى حقا » ، وهو الذى ينحوه أيضاً رجل السياسة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتقى العدوى كل الاتقاء ؟ والحق أن الإنسان يجد نفسه أمام مغامرة غريبة خطرة ، وهى استعمال الألفاظ ، لا لما تدل عليه من معنى ، بل لما تحدثه من أثر .

٢ — العبارات

ويزداد الخطر حين يؤلف بين الألفاظ ؛ فإنى إذ أستمع الناس يتحدثون عن « الأمم الشابة » أرانى حائراً مرتبكا . ولست أجهل ما يقصد بالشباب عند فرديولد وينمو ويهرم ثم يموت ؛ فهذا التحوّل مرسوم رسماً واحداً نهائيًّا بالقياس إلى مختلف الأفراد . إذ أن الذى يقصد بالشباب مرحلة محددة تحديداً دقيقاً من مراحل تطور مستمر . ولكن حين نطلق هذا اللفظ على أمة يلتبس الأمر فوراً : أيراد بالأمة الشابة الأمة القريبة العهد بدستورها ؟ أم تلك التى نشأت حديثاً فاحتد بها الشعور الوطنى وكان فيها أشد حساسية منه فى غيرها ؟ أم يقصد بها الأمة التى ارتفعت فيها نسبة الشباب بشكل واضح وانخفضت فيها نسبة الشيوخ بشكل واضح أيضاً ؟ أم يراد بهذا اللفظ أن الذين يتولون شؤونها ويشغلون المراكز الأساسية بها فى سنّ الشباب ، فاذا لم يكونوا شباباً فى السن أظهروا على الأقل حدّة الشباب وحماستهم واقتحامهم للصعاب وميلهم إلى المجازفة وغير ذلك من الصفات التى اتفق على نسبتها إلى الشباب ؟ أم يراد بذلك أيضاً أن السلطان السياسى والاقتصادى للأمة فى مرحلة من النموّ والتوسع بحيث ينافس الدول التى سبقته فى التوطد منافسة جديدة خطيرة ؟ لا يمكن الاختيار بين كل هذه المعانى ، ومع ذلك فلن يقطع أحد بأن كل هذه الخصال يجب أن تلتقى فى

وقت واحد فى هذه العبارة . وليس ما يدل على أنه لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض . كان ينبغى إذن التمييز بينها لو أريد ذكر شىء دقيق يسنده الواقع ويكفله . ولكن هل أريد ذلك ؟ فالسحر يتلاشى حين نعمد إلى حصر المعنى فى تحديد دقيق ؛ لأن الأمر لا يعدو حينئذ بيان بعض مزايا ضئيلة أو غير مؤكدة ، كما لو قصدنا بالعبارة أن تلك الأمة حديثة التكوين ، أو أن أفرادها حديثو السن ، أو أن مقاليد الحكم بها فى أيدى فتيان يافعين أو مجترئين ، أو أن يكون اقتصادها مزدهراً مبسوط النفوذ . فى حين أن الوصف بالشباب يكفل تفوقاً مطلقاً وحماسيًّا لا جدال فيه ؛ إذ الجدال لا يمكن أن ينصبّ إلاّ على موضوعات محدّدة

فلفظ « شاب » هنا لا يعبر عن واقع ، بل يعنى نفوذاً يتلاشى ويتبدد إذا ألححنا فى تحديده ، أى إذا التمسنا له تفسيراً دقيقاً ، لأنه لم يكن يعبّر عن شىء ، بل كان أشبه «بشيك» لا يقابله رصيد . ولا يفكر أحد مع الأسف أن يقدم هذا الشيك إلى البنك ، يمنعه الكسل من ذلك ؛ فهو يحوّله مغمض العينين إلى غيره من الاغرار . وتداول مثل هذه العملة من الورق يزداد باستمرار ؛ لأن هذه القيمة الباطلة تتوالد بسرعة مروعة . وبالتدريج تقل العادة فى المقابلة بين هذه الاشارات الزائفة ، وبين الأمور أو الآراء التى يتصوّر أنها تمثلها . ولا يعبأ بإدراك الأشياء نفسها ومعرفة خواصها ، بل يجمع على سبيل المصادفة إشارات لا حول لها ولا قوة ، وليس لها إلا أن تطيع . . . وأن تضلل .

كنت أقرأ ذات يوم هذا التعريف للرجل السياسى البارع : « الرجل الذى يرى الأشياء كما هى ويرسم خططه وفقاً لها » . هذا التعريف لايضارَع ، بشرط ألا يخطر على البال أن المعلومات التى يجب أن يلم بها الرجل السياسى من التعدد والتعقد بحيث يخرج عن مقدور الفكر الإنسانى إمكان الوصول إلى رؤية الأشياء كما هى .

فهذه العبارة نفسها تحير الفكر وتربكه . فهل تحتفظ بمعناها حتى حين لايراد بها — كما هو الحال هنا — أشياء معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، بل حالات واتجهات ومصالح ومجموعة من العناصر غير الثابتة وغير المحددة التى تختلف حتى طبيعتها العقلية باختلاف الطريقة التى ترسم بها حدودها ، بل أكثر من ذلك

باختلاف الأهمية التى تضاف إليها ؟ فإن هذه العناصر رهينة أحياناً بمقدار ما نعلق عليها من اعتبار ، فهى تصبح حاسمة إذا خيفت ، أو مهملة القيمة إذا احتقرت . ومثل هذه الأشياء المزعومة ليست موجودة . أريد أنها لا توجد وجوداً صلباً ثابتاً كما يوحى بذلك لفظ « موجود » أو لفظ « شىء » . على أنها حتى لو تمتعت بهاتين الصفتين فلن يستطيع الرجل السياسى أن يراها بالضبط كما هى إلا أن يكون إلهاً . وعلى أى حال فسيراها كما تظهر له ، وستظهر له على الصورة التى يستطيع أن يراها بها وعن طريق مزاجه وعاداته ومعتقداته ومخاوفه وآماله ، أى عن طريق جميع مشيرى السوء الذى يفسدون الحكم ، والذين لا يستطيع أى فرد أن يتخلص منهم تخلصاً كاملا . وعلى ذلك فالسياسى البارع سيرى الأشياء على نفس النحو الذى سيراها السياسى الردىء ، كما لمّح بذلك مؤلف الكتاب الذى استقيت منه التعريف . ألا يوجد إذن أى اختلاف بين هذا وذاك ؟ لا شك أن بينهما أوجه خلاف . فهذا أشد حرصاً فى القرارات التى يتخذها ، وذاك أكثر طلاقة . أحدهما يخضع فى يسر لما توصى به مقتضيات الواقع ، والآخر ينقاد لغريزته وشهوته ، ويخيّل إليه فى حسن نية أن جميع الظروف تعضد مشروعه . ولكن كليهما معرّض لنفس الأخطاء تعرضاً متفاوتاً . ولا يلاحظ بينهما إلا اختلاف فى الدرجة ، على حين أن التعريف الذى أمامى يزعم إيجاد اختلاف فى الطبيعة . وقد يقال لى : « ألا تستطيع أن تطرح جانباً هذه الدقائق ، فتغفر للغة عدم إحكامها البرىء الذى لا يغيّر الأشياء فى مجموعها بحال ؟ ما بالك توجد هنا تمييزاً بين الدرجة والطبيعة ؟ إن هو إلا تمييز فقهى » . وأنا أرجو المعذرة ، فما أزال مصرًّا على تشددى ؛ لأنى أعلق أهمية خطيرة على أن تكون التفرقة فى الدرجة لا فى الطبيعة . فلو أنها كانت فى الطبيعة لما جاز لى أن أقول شيئاً ، ولأصبح السياسى البارع ذلك الذى وصف ، أى ذلك الرجل الذى منح بصيرة إلهية لا يعوضها شىء ، على حين يبدو الآخر على هيئة رجل بائس يتجه حتماً نحو الإخفاق ، ومصيره أن يلبث فى الظلمات الخارجية مدى حياته كلها . أما إذا كان الاختلاف فى الدرجة ولم يقصد إلا زيادة فى الدرجة أو نقصان ، فإن التعريف تسقط قيمته على الفور ؛ لا لأن نظرة الرجل السياسى قد تكون حسب الظروف أقرب إلى الموضوع وأشد مطابقة له أو أبعد عنه وأقل مطابقة له ، وأنه يستطيع على أى حال أن يصلح هذه النظرة إذا أظهر على خطئه ، بل لأن من

المشكوك فيه أن الكمال يعتمد على فطنة ممعنة فى الحذق وعلى مجموعة كاملة وافية من البيانات الصحيحة ، بل قد ينشأ ، على العكس من ذلك ، من مزج بين بعض الامتثال للظروف وبعض الحماسة ! هذه الحماسة التى تدفعه من ناحيته إلى عدم التعلق بأشد البيانات دلالة حين تفرضها هذه الظروف . ولا أقصد أن هذه الحماسة تستند على نوع من الإدراك أو الإيحاء ينبىء العبقرى أن ليس أمامه هنا أكثر من مجرد مظهر بسيط لا يخفى شيئاً ؛ فإن الأمر لا يعدو فى هذه الحالة أن يكون تعمقاً فى الفطنة ، وإن شئت فقل نتيجة لنظرة إلى الأشياء أشد نفاذاً . أعنى بذلك أن حماسة الرجل السياسى وإرادته وذكاءه ومناوراته ومثابرته كثيراً ما تنجح فى تغيير الظروف نفسها ، وهى فى الواقع قابلة للتشكيل والتحويل ، وتتألف من نسب قابلة للتعديل ، ومن قوى تعمل للذين يعرفون كيف يأسرونها واثقين بها . وجغرافيا الرجل السياسى المتسعة لا تقتصر على مجموعة معقدة من الجداول والقمم والممرات الضيقة ، بل تشمل أيضاً جبالا شامخة تبدو مستقرة ثابتة حتى يقوم إيمان عنيف غير قابل للتفسير ، ولا يمكن أن يتنبأ به عقل أو منطق ، فيدفعها إلى الحركة . ويطلعنا التاريخ على كثير من هذه المعجزات الظاهرية ، وكثيراً ما رأينا فى المسائل الانسانية المرنة السهلة الصياغة أن التعصب يصل إلى تحقيق غاياته حيث يعجز عن ذلك العلم وصواب الحكم النافذ . وأحياناً يرجع التغلب على الصعاب إلى إنكارها وعدم الاعتراف بها ، أو إلى الاندفاع العنيف الذى يغمض عينى البطل بقدر يجعله لا يكاد يراها ، ويمنحه بذلك حظاً من البأس يعينه على قهرها . وطبيعى أن المقصود ليس الاندفاع مع إغفال كل عامل ، فقد يعثر المتحمس عثرة سخيفة ويتحطم كالزجاج ، لأنه إزاء صعوبة ما لم يقدر ما تنطوى عليه من مقاومة حق قدرها . لذلك كنت أقول إن الخير فى مزاج يلائم بين مقادير من العوامل المختلفة . وتعريف المؤلف الذى ذكرته لم يكن ليشعر بذلك ، بل كان يستبعد حتى مجرد التفكير فيه . إنما المهم فى رأيى هو هذا . كما أن المهم أن يظهر أن هناك فارقاً بين الاختلاف فى الدرجة والاختلاف فى الطبيعة . ولم أكن أناقش فى هذه العبارة إلا معناها لاسداد حكمها ؛ لأنى أريد أن أبين كيف أن الألفاظ تغر . فليس يعنينى أن أتحقق من دقة التعريف أو قصوره ، ولو أنى حاولت ذلك لاضطررت إلى العدول عنه فوراً . لأن مرجع الأمر ما يقصد بالسياسى

البارع : أيقصد به الماهر ؟ أم الأمين ؟ أم الخير ؟ وهل مقياس ذلك نجاح مشروعاته أو سمو خلقه أو حسن ما يبلغ من النتائج ؟ ووجهات النظر الثلاث لها ما يبررها . ويمكن إذن الاعتماد على كل منها وتعريف السياسى البارع على أن اختيار أحدها دون سواها يكون موضع نزاع لا ينتهى . ومن ذا الذى يأخذ نفسه بذلك .

٣ — خداع الألفاظ

على أن الجملة المذكورة كانت خلابة المظهر ، كانت منسجمة تلذ السمع ، ولكنها لم تشتمل إلا على ألفاظ لا تصلح لأداء المعنى ، وعبارات لاحظ لها من الإفصاح . وقليلة تلك الجمل التى لا يخلب مظهرها ، غير أنه ليس من المستطاع تحليلها جميعاً . لكن ذلك واجب ، فليست هناك علامة خارجية تميز الجمل التى لا تنطوى إلا على ألوان من الاضطراب والسراب عن غيرها . فهى حسنة التركيب ، تتألف من ألفاظ عادية ، وتخضع فى نظامها لقواعد النحو المألوفة . وهى تملأ الحديث والكتابة ، وكل منا يسمعها ويرددها ، ولا يلبث أن يؤلف غيرها دون أن يعنى بتحليلها كما ينبغى ، شأن موظفى الجمارك الذين يتعذر عليهم فتح جميع الحقائب ؛ وهكذا تمر باستمرار بعض المهربات الضئيلة . ولكن إذا ما توقف ذهن يقظ لحظة عن القراءة أو الكلام أو الاستماع ، وحاول أن يختبر الألفاظ التى يستعملها أو مشتقاتها المختلفة ليعرف ماذا تعنى وأية حقيقة واقعة نزعم التعبير عنها ، هنالك ينهار كل شئ ، وينكشف البهرج الذى لم يكن يخفى إلا غروراً أجوف . ولم يكن الكلام إلا بناء غير متين أسبغ عليه غشاء يخدع الأبصار عنه طلاء غليظ . وكان الفكر المتسرع أو الغافل قد قدر أن له معنى ، لأنه اعتاد — وهذا هو الخطر — أن يقنع بالألفاظ المألوفة التى لا يصدمه فيها سحف ظاهر . فقد يكون عسيراً أن تبدو على الألفاظ سخافة . وأيسر من ذلك أن تأتلف ألفاظ لا يؤذى الجمع بينها ، بل يدعو بعضها بعضاً ، وتسرع بنفسها إلى اللسان أو القلم . ويجد الانسان فى هذا اليسر الخطر غبطة ورضا ، على حين يشق العقل على نفسه ، وينحرف عن طريقه ، ويمتنع على الكسل حين يؤلف بين ألفاظ يؤذيه الجمع بينها . لذلك يلاحظ أن معظم الجمل التى نلقاها يبدو عليها مسحة

ظاهرة من المعنى ، لكنها لاتعدو المسحة الظاهرة ، ولا تقوى على المقاومة عند أول اختبار لها . وأغلب الظن أن يكفى فى معظم الأحوال محاولة الإحداق بمعناها ومحاصرته ليتبيَّن أنها خالية من المعنى .

ولا بد لهذا الاختبار من أن يقع . هناك يثوب العقل إلى نفسه فجأة بعد أن هام بين الألفاظ كأنه أنشى بها ، فتعاوده الرغبة فى أن يعتمد على شئ أشد ثباتا . وهو يريد أن ينفذ خلال الألفاظ ليصل إلى الحقائق الواقعة ، أى يريد أن يلمس المعدن الذى لا مراء فيه والذى يكفل هذه الكمية الوافرة من أوراق النقد المصرفى . والواقع أن التجربة وحدها هى التى تبيّن لنا أن لفظاً من الألفاظ يساوى اكثر من الصوت الذى يحدثه حين تكشف عن أن اللفظ يستند إلى حقيقة قاطعة من تلك الحقائق التى دعمت دعماً نهائيًّا بالحواس أو بأى طريق آخر من طرق المعرفة والتحقيق . هنالك يخضع كل أمر لامتحان شديد ، فيمتنع الخلط بين الأشياء أو إمكان انكارها أو رفضها . فكل مايحاط به علماً قد عرف عن طريق اليقين . ويبقى فى النفس أثر كأنه التئام للجرح الناشىء عن هذا الاستكشاف الذى قد يكون مألوفاً بالقياس إلى بعض الناس أو نادراً بالقياس إلى البعض الآخر . هكذا يحتفظ كل واحد بذكريات تتكون منها ثروته الشخصية ويقابل بين هذه الذكريات وبين الألفاظ حين يريد أن يتحقق من صفتها ومن قيمتها . فمن وراء المجموعات الرنانة من الألفاظ التى يصادفها فى القراءة أو الحديث يريد أن يصل إلى بعض المعلومات التى لا يمكن نقضها ، ولا يستسلم قبل أن يصل إلى غرضه . ولا ريب أن الأحاديث أو الصفحات التى تثبت للتجربة قليلة ؛ فنى مرحلة من مراحل التحقيق إذ يوالى الفكر التعمق فى البحث تبدو هذه الألفاظ مجرد تكديس وتنتثر الأعضاء التى تتألف منها الجمل قبل أن يتمكن من وضع يده على حقيقة يتثبت منها . تخيب حينئذ آماله ولا يبقى أمامه إلا تركيب نحوى وعناصر مضطربة يعجز عن ربطها بعضها ببعض ويضطر أن يعيدها إلى المعجم لعجزه عن فهم ما بينها من علاقات . وفى الحق أنه لم يكن وراء ذلك شئ آخر : فمن ناحية قالب من هذه القوالب العادية الدارجة التى تضعها اللغة تحت تصرف الفكر فيستعملها الفكر ليصبّ فيه ما يريد الإفصاح عنه . ومن ناحية أخرى ألفاظ تلقتها الآذان فى غير وعى واستعملت على الفور دون أن يُدلّ بها على معانٍ محققة قد استقصاها العقل

استقصاء دقيقاً ورتب بعضها على بعض كما ترتب النتائج على المقدمات ترتيباً لا سبيل إلى نقضه .

ولكن من ذا الذى لا يقنع بأن يتخذ من الألفاظ نفسها ضماناً يحميه من خداعها ؟ ومن ذا الذى يفرض على نفسه أن ينزل فى كل مرة إلى الحقائق الأولية المؤكدة أو على الأقل أن يتحقق من أن الطرق التى تؤدى إليها مأمونة ؟ الخير فى هذه الحالة التزام الصمت ، وأظن أن أرقى الأذهان يضطر إلى ذلك فى نهاية الأمر . ولكنى أقتصر على الأذهان المتوسطة وما يحيط بها من ظروف عادية . فمن المحقق أن الذين يتخذون الاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الحالات قليلون نادرون . ثم إنه لن يستطيع أحد أن يتخذ دائماً هذه الاحتياطات فى هذه الحالات نفسها . ينشأ عن ذلك أن تغمر الألفاظ كل شئ ، ولا ينتظر لاستعمالها أن تكون التجربة قد أسبغت عليها أقل قيمة . وعلى العكس من ذلك ، فبمقدار ما يقل معناها بالقياس إلى الذى يستعملها يزداد ادعاؤه أن من حقه أن يفرغها فى أية عبارة ، ظناً منه أنه بهذه الحيلة يزيد فى معناها . فترى أحدهم يقول : « ما العدالة إلا قرار من . . . » كفى . فقد عرفت أن العدالة قابلة لتعاريف أخرى . عرفت ذلك مما يبذل من جهد ليحوّلنى إلى عكس ما أعتقد . على حين يؤكد آخر : « إن الديمقراطية الحقيقية فحواها . . . » هأنذا قد أخذت حذرى ؛ فقد اتخذ عدته إذا لم أوافقه ليزعم أن تصوّرى للديمقراطية ليس التصور الصحيح . فما الداعى إلى المناقشة ! وثالث يكتب : « إن الذين يحسنون قراءة أفلاطون يتبينون فى آثاره . . . » ما باله لا يعمد الى الصراحة فيقول إنى إذا لم أتبيّن فى آثار أفلاطون ما تراءى له فذلك أنى لم أحسن قراءته . وهكذا . فبالألفاظ والعبارات يمكن كلّ إنسان أن يسترسل فى الحديث والكتابة كما يشاء ، دون حاجة إلى تجربة أو تفكير . وفيمَ يحرم الناس أنفسهم ذلك ؟ وإن منهم لمن أنفق حياته كلها لم يتحدث فيها إلاّ على هذا النحو . فما أيسر من أن يتحدث الانسان عما لا يعرف . بل إن ذلك لا سبيل إلى تجنبه ، كما أنه أقل لفتاً للنظر من أى شئ آخر . فلن ينزعج أحد إذا تحدث كاتب إلى قرائه عن شجر الساج الذى رآه وقد كانت الديدان تنخره ، أو إذا تألم فى شكل رسمى من أن الفضيلة لا تلقى ثواباً فى كل حالة . ومع ذلك فإن الديدان لا ترقى أبداً إلى شجر الساج ، والفضيلة لو أنها أثيبت دائماً لما كانت فضيلة ، بل

لأصبحت شيئاً يصعب التمييز بينه وبين المصلحة والتدبير الحاذق . ليراجع كل واحد نفسه . فأى الناس يستطيع أن يؤكد أنه لم ينكر بوجه من الوجوه ألا يكون للدائرة زوايا !

وما عسى أن يكون الأمر لو أنه لم يقتصر على عبارات وجيزة منعزلة ؟ فالذهن يميل إلى جمع الألفاظ بحيث تتبادل المعونة ، وتؤلف فى النهاية شيئاً كأنه شبكة ضخمة يكاد يكون فى وسعها أن تحل محل العالم أو على الأقل أن تقف بين الانسان وبين المعرفة التى يحاول أن يبغيها عن هذا العالم . فهو معرض منذ نشأته لهذا الشرك الذى تنصبه له المذاهب . فالألفاظ هى التى يراها أول الأمر ، وسرعان ما تكون حاجزاً يحجب عنه الواقع . وهذه الألفاظ تهاجم الفكر وتخدره بعددها وخلطها واضطرابها . وهى تسبق تجاربه بدلاً من أن تجىء فى الوقت المناسب أى حين ينتهى من هذه التجارب ويشعر بالرغبة فى تحقيقها والتثبت منها . وهكذا يعتاد فى حديثه أن يعطى الألفاظ أهمية تفوق أهمية الأشياء . فلا يراها على أنها إشارات لا تعدو مهمتها التعبير عن هذه الأشياء . هنالك يستلزم الأمر للتخلص من سلطان الألفاظ صرامة فكرية نادرة . وكيف لا يكون الحال كذلك وهذه الألفاظ تغزو كل رأس مسكين أول ما يتنبه إلى نفسه ! فالمدرسة ، والصحف ، والكتب ، والإذاعة ، كل شئ يتآمر على ملئه بضجيج الألفاظ بدلا من ملئه بضجيج العالم . وهذا الرأس لا يتلقى شيئاً إلا عن طريقها . وها هو ذا قد أعد إعداداً طيباً ليصير ضحية لكل خدعة من خدع الألفاظ . بل أكثر من ذلك فقد يحدث أن يطمئن لهذه الحالة . فالفكر الذى به بعض النشاط سرعان مايعرف كيف يستفيد من ذلك . وهذا الجمهور قد احتشد فى الميدان العام فاغراً فاه ، ينتظر حضور المشعوذ وما سيعرض عليه من ألاعيب . ولن يعدم المشعوذ أغراراً يخدعهم بحيلة .

(للبحث بقية) روجيه كايوا

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته